قسم اللغة العربية وآدابها

الفرقة : الأولى

محاضرة تاريخ النقد حتى نهاية القرن الثالث الهجري (٢)

د/ إيمان عبد السميع

مقياس المكان :

إن الشعر صورة صادقة للبيئة التي نشأ وتطور بها ، ولا شك أن البيئة البدوية تختلف كثيرًا عن بيئة القُرَى ، فالشعر « صورة للمجتمع في كل بيئة ، ومرآة الحياة في كل عصر، وسِجِل الأحداث في كل زمان ، فهو صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وانعكاس للآمال والمشاعر، وتاريخ صحيح لعصره ومصره»(١)، وقد ذكر النقاد المتقدمون أثر البيئة في الشعر ، وبيَّنوا أن الشعر يتأثر بالبيئة ويكون نتاجًا لها ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « لم أَرَ بدويًّا أقام في الحضر إلا فسد لسانه»(٢)، وكان أبو عبيدة يقول : « أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، منهم امرؤ القيس ، وزهير، والنابغة»(٣).

ومن ثمَّ فقد امتنع علماء العربية عن الاستشهاد بشعر أهل المدر، واكتفوا بشعر أهل الوبر؛ لسلامة لسان البدو وأثر البيئة في فصاحة اللغة(٤).

وقد لاحظ ابن سلام الاختلاف بين البيئات وأثره على الشعر؛ لذا فقد قَسَّمَ الشعراء إلى شعراء وبر "بدو" ، وشعراء مدر "حضر"، وجعل شعراء البادية في إحدى عشرة طبقة ، جعل الطبقة الحادية عشرة منها لأصحاب المراثي ، ثم نظر في شعر الحضر، فوجدهم يتركزون في خمس قرى جمعها بقوله : « وهي خمس : المدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمامة ، والبحرين ، وأشعرهن قرية المدينة»(٥).

وقد أدرك ببصيرته الثاقبة الفرق الدقيق بين شعر البادية وشعر الحاضرة ، وبَيَّن أن شعر البادية يختلف عن شعر القُرَى ؛ فشعر البادية فيه من القوة وفخامة الألفاظ وجزالة المعاني ما يُمَيِّزُهُ عن شعر القُرَى الذي يتصف باللين ، ويَكْثُر فيه الخلط والانتحال.

ولم يكن ابن سلام هو أول من لاحظ أثر البيئة في الخصائص الفنية للشعر، فقد سبقه إلى ذلك أستاذه الأصمعي حين تحدث عن عدِّي بن زيد فقال : « عَدِي بن زيد وأبا دؤاد الأيادي لا تَرْوي العرب أشعارهما ؛ لأن ألفاظهما ليست بنجدية»(٦)؛ فالعلماء يرون أن أهل نجد أقوى شاعرية من غيرهم في بلاد العرب ؛ بسبب موقعهم وما يتميز به من هواء جميل

---

(١) عبد الفتاح لاشين : الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص٨.

(٢) عبد القادر عمر البَغدادي : خِزانة الأدب ولبّ لُباب لسان العرب ، ج١ ، ص٢٢٠.

(٣) القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ص٩٧.

(٤) انظر : ابن جني : الخصائص ، ج٢ ، ص٧.

(٥) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج١، ص٢١٥.

(٦) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص٨٨ ، وانظر: جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، القاهرة ، د. ط ، د. ت ، ج١ ، ص ٦٣.

ونسيم عليل ؛ مما أكسبهم ذهنًا صافيًا ، ومِنْ ثَمَّ فإن العرب كانت لا تقبل بعض الشعر ؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية .

ويؤكد هذا قول ابن سلام : « وعدِّي بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فَلان لِسَانُهُ ، وسَهُل مَنْطقه ، فحُمِلَ عليه شيء كثير، وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خلف الأحمر، وخلط فيه المفضل فأكثر»[٧].

إن بُعْدَ عَدِّي عن البادية ؛ إذ كان يسكن الحيرة ومراكز الريف قد أَثَّرَ على شعره ، فلم يَعُدْ أعرابيّ النزعة متين الأسر كغيره من الشعراء ، وهذا يَدلنا على اهتمام ابن سلام بأثر البيئة على ذوق الشاعر و نتاجه الشعري[٨]، ومن ثَمَّ فقد تأخر عَدِّي إلى الطبقة الرابعة الجاهلية ، وهو شاعر قديم جاهلي معروف ، وليس له من الجياد إلا أربع قصائد ، أمَّا ما تبقى من شعره فَلَين ضعيف قَعَدَ به عن مرتبة الأوائل ؛ لذا فقد أخرجه أبو عمرو بن العلاء من زمرة الشعراء ، فقد سأله الأصمعي مرة « كيف موضع عدي بن زيد من الشعراء ؟ فقال : كَسُهيل في النجوم يعارضها ولا يدخل فيها»[٩] ، وقد أكد ابن قتيبة فيما بعد قول ابن سلام في عَدِّي وكَرَّرَ ما قاله[١٠].

فلين الشعر في نظر ابن سلام مرتبط بحياة الحضر، وهو سبب لأن يُحْمَل على الشاعر ما ليس له من الشعر؛ ولذلك حُمِل على عدي بن زيد شيء كثير يَصْعُب تخليصه ، ومن ثَمَّ يجب أن نتوخى الحذر في أشعاره ؛ لأن شعره يَشْكُلُ حتى على النقاد والعلماء ، وكذلك الحال بالنسبة لشعر قريش فإنه شعر فيه لين ، ومن ثَمَّ يكون مدعاة للتشكيك في الشعر، يقول ابن سلام : « وأشعار قريش أشعار فيها لين ، فتُشْكِل بعض الإشْكالِ»[١١]، ويَفْصِلهم عن أهل البدو الذين يخلو شعرهم من اللين ، فلين شعر قريش والقرى العربية جعله ابن يضعهم في طبقات تبعًا لقراهم .

فتفضيل الشعر البدوي جاء من وجهة نظر لغوية ؛ إذ كان اللغويون ينفرون من كل جديد حتى لو كان حسنًا ؛ لأنهم كانوا يبحثون عن الشواهد الأصلية التي لم تتأثر بالمؤثرات الأجنبية ، وقد رَسَخَ في أذهانهم أن الجزالة والمتانة لا توجد إلا في ألفاظ البادية ولغتها ، « وليس كل شعراء البادية أو الحاضرة في مستوى واحد من الفصاحة أو السلامة اللغوية ،

---

(٧) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج١، ص١٤٠.

(٨) طه إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص٨٢ – ٨٣.

(٩) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص٨٦.

(١٠) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج١، ص٢٢٥ ، ٢٣٠.

(١١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج١، ص٢٤٥.

ولكنهم يتفاوتون في ذلك تفاوتًا واضحًا تبعًا لدرجة تبديهم ، وبعدهم عن المؤثرات الأجنبية ، أو عمن قد تأثروا بهذه المؤثرات»[١٢].

ولذلك رفض الأصمعي الاحتجاج بشعر بعض الفحول من الإسلاميين ، مثل : الكُمَيت والطرِّماح ، وذي الرُّمَّة ، ويتضح ذلك في قوله : « الكميت بن زيد ليس بحجة ؛ لأنه مولَّد وكذلك الطرماح»[١٣] .

ويوضح سبب رفضه الاحتجاج بشعر الكميت قوله : « ليس الكميت بن زيد بحجة ؛ لأن الكُمَيت كان من أهل الكوفة ، فَتَعَلَّم الغريب ، ورَوَىَ الشعر، وكان معلّمًا فلا يكون مثل أهل البدو، ومَنْ لم يكن من أهل الحضر»[١٤]، أما عن ذي الرمة ، فقد رفض الاحتجاج بشعره كذلك ؛ لتردُّده كثيرًا على بعض الحواضر العربية كالبصرة واليمامة ، وكثرة زياراته لحوانيت البقالين ، وفساد لغته تبعًا لذلك[١٥].

وهكذا يُبدِي الأصمعي رأيه في هؤلاء الشعراء الثلاثة ، ويرفض الاحتجاج بشعرهم ؛ انطلاقًا من عدم مخالطتهم العرب ، وعدم إغراقهم في البداوة والتشبُّع بفصاحة أهلها.

ولقد لَخَّصَ ابن جني علة الأخذ عن أهل الوبر وترك الأخذ عن أهل المدر بقوله : « ولو عُلِم أن أهل مدينةٍ باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم ؛ لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك – أيضًا – لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدَر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها ؛ لوجب رَفْض لغتها»[١٦].

وقد صنف ابن سلام القرى العربية وفق جودة أشعارها ، وفَضَّل المدينة على باقي القُرى العربية بقوله: « وأشعرهن قرية المدينة»[١٧]، ولم يلتزم في طبقات القُرى بنظامه العشري الرباعي ، فذكر من شعراء المدينة خمسة شعراء فحول على رأسهم حسان بن ثابت ، وذكر تسعة من شعراء مكة ، وخمسة من شعراء الطائف ، بَيدَ أنه لم يُوضح مرتبة حسان وسبب تقديمه له ، فهو يضع شعراء كل قرية في مرتبة واحدة دون مفاضلة بين شعرائها.

كما بَيَّنَ أن الحوادث التي تقع وتتصل ببيئة معينة لها أثر في الشعر، فالبادية تكثر فيها الحروب بين القبائل المتنازعة ، بينما تقل في المدن والقرى حيث الترف وانشغال الناس

---

(١٢) عثمان موافي : الخصومة بين القدماء والمحدثين ، ص٢٠.

(١٣) الأصمعي : فحولة الشعراء ، ص٢٠.

(١٤) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص٢٤٨.

(١٥) المصدر السابق ، ص٢٢٤.

(١٦) ابن جني : الخصائص ، ج٢ ، ص٧.

(١٧) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج١، ص٢١٥.

بالتجارة ، وغيرها ، كما ظهر ذلك في مكة والطائف قبل البعثة ، يقول : « وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويُغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمَان ، وأهل الطائف في طَرَفٍ»[١٨].

ولم يزد ابن قتيبة عن أن كَرَّرَ ما قاله ابن سلام في أثر البيئة في الشعر، دون أن يضيف جديدًا ، مثل ذكره ما أحدثه الريف في شعر عدِّي بن زيد من ضَعْف وركاكة[١٩].

أما ابن المعتز فلا نجد عنده سوى إشارة تدلُّ على ما للحضر من أثر سيييء في فساد الملكة الفنية ، مستدلاً على ذلك بالشاعر عُمَارة بن عَقِيل الذي « قدم من البادية إلى الحضر، وهو أفصح الناس ، وأحسنهم هَدْيًا وقصْدًا ، صحيح الدِّين ، ليس عنده من المجون والسخف شئٌ ، فما رجع إلى البادية وهو مؤمن بحرف من كتاب الله»[٢٠]، فعمارة بن عقيل كان أشعر أهل زَمانه ، محكم الرَّصف جيّد الوصف ، نَقِيّ الشعر، ولكن دعة العيش وترفه سلبته فصاحته ودينه.

---

(١٨) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج١، ص٢٥٩.

(١٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج١، ص٢٢٥.

(٢٠) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص٣١٦ – ٣١٧.